

فواجر ونصائح

الى اللبنانيين من لبناني وطني

بقلم الاب لامنس اليسوعي

الشبيبة الكاثوليكية في بيروت عادة حميدة يتبها منذ نشأته ؛ فيمدّ ، كل سنة ، سلسلة من المحاضرات النفيسة يلقيها رجال شُهد لهم بالمتدرة والاختبار . وقد تختلف مواضيع هذه المحاضرات ، ولكنها تدور كلها حول البلاد وما فيها من مقدّرات ، وما يلزمها من تحيينات . ومن افضل المحاضرات التي أُلقيت ، السنة الفائتة ، محاضرة فرنسوية للسيد ميشال شيحا القاها في ١٠ كانون الثاني ١٩٣٠ ودعاها « مشكلاتنا واحكامنا المتسرّعة فيها » . ولم اتمكن ، لسوء الحظ ، من سماعها لعروض مؤسف اقمدي-مدة طويلة . على ان النادي احسن صنفاً بنشرها على حدة ، فقرأتها بوافر السرّة ، ووددت ان يشاطرنني جميع قرائنا الكرام الفائتة الجزيلة التي نالتني منها .

واول ما يبدو لنا جمال الاسلوب ، وإتقان الانشاء . فان المحاضر يستعمل اللغة الفرنسية بتقدرة فائقة ، ويستغلّ بمهارة وحذق جميع طرق الفصاحة . ومع انه ليس اصعب من اعطاء النصائح الا اقتناع السامعين بوجوب قبولها ، فان السيد شيحا يعرضها بلطف وظرف ، حتى ان الحاضرين ينصاعون الى كلامه بكل ارتياح ، وقد عرفوا فيه الرجل المخلص والوطني القيور الذي طالما فكّر في اهمية وطنه السياسية والاقتصادية ، وفي قيمة عوامل هذه الامة ؛ فيشعرون انهم امام الخطيب الذي وصفه شيشرون قائلاً « انه رجل شريف يعرف ما يقوله لنا ، ويعرف مواقع التمييز عند » .

والخطيب ينصح لنا (ص ٥) «بان تقني كرة تمثل الارض ، وان ننظر اليها بدقة ومواظبة ، وان نجمل منها موضوع تأملاتنا.» وما الفائدة من هذه التأملات ؟ فائدتها ان نضع حداً لتأسفاتنا على قمر لبنان المزعوم . فنقطع ، بواسطة هذه التأملات الجغرافية ، على ان لبنان واقع في نقطة من اهم النقاط الحيوية في العالم الاقتصادي ، وعلى طريق من اهم طرق العالم القديم . « فان كل آسية الجنوبية ، اي نحو سبع مائة مليون من البشر ، اذا ما شاوروا ان يصلوا الى البحر المتوسط ، وهو قلب العالم القديم ، فلا يمكنهم الا ان يبروا في بلادنا . قد يرون بانحراف قليل الى الشمال او الى الجنوب ، وليس في ذلك كبير امر ، لان آسية بجملها ، آسية اللجبة ، التي تمتد من خليج المجمع الى بحر اليابان ، عند ما يزداد استعمالها للقطارات الحديدية وللسيارات وللطائرات ، وكذلك اوربة عند ما تشاء الوصول اليها بطريق برية او هوائية ، لا تريان مندوحة عن السير على طريقنا (وهذا ما يشرح لنا نوعاً ما فائدة مطار طرابلس) . ولم يكن قطار سيبرية ليتصر علينا في هذا المجال . وهذه هي النظرية التي عرضناها سابقاً في المشرق (٢٦ [١٩٢٨] ٥٧٧) بعنوان «سورية طريق المند» . وان التاريخ ، كما يقول المحاضر ، نتيجة الجغرافية في اكثر مظاهره . وهو يستنج من هذه الملاحظة عبرةً مبتكرة ومفيدة فيقول : «لا يمكن لشب من الشعوب ان يعيش كأمة متميزة فينمو ويستقر على طريق من هذه الطرق المهمة التي تسعها عشرون أمة ، وبالطبع يشتهنها جميعاً ، ألا اذا كان قريباً بنفسه ، او اذا انضم الى شب قروي ، او اتحد معه . وهذا ما يشرح لنا ان هذه البلاد لم تعرف ، او لم تكند تعرف ، ألا آناً بعد آن وبصورة متطمة ، الاستقلال التام . » ويا له من نور ساطع تنشره هذه الملاحظة على المستقبل السياسي في لبنان وسورية ! ولكي نفهم ذلك كل الفهم ، علينا ان نضيف الملاحظة التالية للمحاضر ، قال (ص ١٠) :

« اما من حيث السياسة فان فرصة لتتم بنا اهتماماً يدفعها الى عدم التخلي عنا ، اللهم الا اذا تحولت عما هي عليه ، وانها لتعلم الآن حق العلم اي منافسة تتيها لها ، وكم من الدول ترغب فينا ! اما من جهتنا فان لنا ، بصرف النظر عن

الاسباب العاطفية القوية ، مصالح تبادل مصالحها على الاقل ، في التطق بها .
 ونحن نرى ان هذه هي النتيجة التي يصل اليها جميع الدائنين المفكرين الذين لا
 يتقنون بطنين الالفاظ ، ولا يسكرون بنشوة فصاحتهم وبيانتهم !

* * *

وليس السيد شيحا من هؤلاء . فانه بعد ان يبين المنافع الجليلة التي ينالها
 لبنان من وجوده على طريق عالمية ، يكشف عن المضرات ايضا فيقول : « ان
 الطريق اشبه بالناحة العمومية . . . » ولهذا يتهمنا البعض بكوننا سطحيين . . .
 ثم يتابع بكل جرأة (ص ١١) : « اتنا في بلاد تنصرف فوق اللزوم الى الوجهة
 المادية . لانه يصب علينا ، الا في ما ندر ، ان تصوروا تاجراً ، او وسيطاً ، او
 صاحب تول ، او ما الى ذلك من اصحاب المهن التي تتطلب الطريق وجودها
 وتريد المواصلات في انتشارها ، يصب علينا ان نرى اصحاب هذه المهن يعملون
 لمجرد الخير ، على طريقة السامري الصالح . . . ليس لي ان احط من شأن هذه
 المهن النافعة ، الضرورية ، الشريفة دون شك اذا استعملت بحرف . الا انني
 اشير الى انها خطيرة من طبيعتها ؛ والى انه ، حيث يزداد انتشارها ، على
 الحكومة واجب اجتماعي قد لا يجب عليها في غير ذلك من الظروف . لان
 المسألة تتحول الى مسألة تهذيبية واخلاقية ، الى مسألة اجتماعية من اجدر المسائل
 بالاهتمام . »

فان المكسب القريب يبهرنا فيستويينا ، « فننصرف الى القيام بخدمة
 مأجورة ، عن غرس شجرة قد تظل ابناًنا . وعلى هذه الطريقة ، نسير في
 جميع مآتيننا ، فنهل ، في ابحاثنا ومناظراتنا ، الفلسفة التي هي العمق ، لتعاقب
 بالبيان والادب وما هما الا التسطح . »

وان السيد شيحا الذي اظهر كل رغبة في الطرق ، يرى من اللازم ان
 نتحفظ في احكامنا بذا الشأن ، فيصرخ (ص ١٢) : « الطرق اوددت لو
 كانت اقل مما هي في بلادنا اوددت لو ظلت عشرات القرى والمزارع منفردة
 مغلقة تستمض عن موسيقى اوراق السيارات ، بجفيف اشجارها وخير مياهها ! »

لأن اللبنانيين ، بواسطة كثرة الطرق ، يهجرون قرانهم ومزارعهم . وما ان كثيراً من البلدات الكثيرة السكان ، في ماضي ، اصبحت ، وقد خلت نصف منازلها ، بسبب الحرب والهجرة الاميركية ، وبسبب هبوط سكانها الى مدن الشاطئ . فهل يمكننا ان نرى تقدماً في ازدهار الناس في المدن ؟ هو ما يشك فيه المحاضر ، وحق له الشك ، فيقول : « ان ذلك الانتقال لنا يفض عنصرنا . فان الجبل اعطى آباءنا نسلأ قوياً صالحاً . . . عند ما تُصبح حقوقنا المهجورة ولا نبات بها الا الشوك والموسج ، عندما يُصبح جبلنا الشامخ مروضاً في سوق التجارة وقد عتم واجذب ، عندما يتلاشى حب ارض الضيقة وكنيسة الضيقة امام التمهش الى الذهب ، عند ما نصبح ، في جميع مظاهرننا ، شعباً تاجراً ، عند ذلك نشمر كل الشمر بقوة الكارثة . ولكنني اخاف ان يكون شمرنا بعد فوات الحين . »

« ان هذه البلاد ، التي لو فقهت ، لرات مائة سبب تحملها على القناعة والابتقاء ، والتي لو عقلت ، لوضعت حدأ لاطاعها ولتأوهاتها ، ان هذه البلاد قد اختلفت موازنتها فاصبحت عرضة لمزيد الشرور . »

ثم يذكر الخطيب ، بكل اختصار ، لضيق الوقت ، عدداً من الآراء السائرة والاحكام المتداولة دون ان يكون لها مستند قوي او سبب كاف ، من ذلك مسألة اللنة : « كأن هذه البلاد ، التي تكلمت ولا تزال تتكلم جميع اللغات تقريباً الحية ، والميتة المحفوظة بفضل المقائد والطقوس ، يمكنها الاقتناع بلنة واحدة مها كانت جميلة . . . وهناك حكم آخر فاسد ايضاً وهو ذلك الذي يدعو « ادياء وسادة » لا من يفكرون ، بل من يكسبون ويتكلمون ، والذي يُفقد القاب النبوغ والمبتقرية على اول قادم ، بشرط ان يتكلم نظماً . وحكم فاسد ايضاً ذلك الذي يجعل لبنان - على وغم ما فيه من اسباب المعاش المختلفة ، منظورة وغير منظورة - بحالة الخطر الدائم مذ قل فيه بيع الانسجة القطنية . »

بعد هذا النصح الدقيق المخلص ، ابي دوا . رسم المحاضر ؟ فلنصغ اليه (ص ١٣) : « لكي يحافظ لبنان على ميزته الخاصة ، وكيلا يكون سوقاً مشتركة بين الشعوب لا ميزة لها ولا روح ، وكيلا تُصبح الطريق عمراً للكثير من العادات والآراء الدخيلة ، وحتى لا يحدث بنا ما حدث باهل برج بابل ، علينا ان نتحرر من الروح الناسد الذي يبثه بعض النفسين تحت ستار المساواة ، ومن الروح التجاري الفاسد ايضاً ؛ فنهمل الجهة المادية في الامور دون ان نجعلها طبعاً ، لان اهتمامنا المادية لا تقف عند الاقتصاديات والمطاشات وما يلحقها من زيادة وتقصان ، ولا عند الابنية وما يجب لها من اعمال مريمة او بطيئة . علينا ان نتحرر من كل ما سبق فنكلم اهل بلادنا ، في اقل ما يمكن من الظروف ، عن المال وما يجره . بل علينا ان نخاطبهم ، وبطريقة مستحبة دقيقة ، في شأن تهذيبهم العقلي والخلقي . علينا ان نهتم بالعائلة ، والمدرسة ، وبطبقات الشعب واحدة واحدة ، فندرس روحها ونطلع على احتياجاتها الحقيقية . علينا ان نحترم العادات والتقاليد ، ريثما نصل بالتدريج الى نظام سياسي واجتماعي واخلاقي اقوى من نظامنا الحالي واثبت . »

وفي عمل الانهاض والتحسين هذا ، يستند السيد شيجا الى المدرسة والتعليم ، ولكن لا الى ابي تعليم كان ، وهو يشرح فكرته على الصورة التالية : « علينا ان نبرز التعليم ونقل من تفرقه ، فنكون ادق وأصرم واشح في توزيع الشهادات . علينا ان نخشى المدرسة الابتدائية اذا لم يكن التهذيب غايتها الجوهرية ، وعلينا خصوصاً ان نخشى ، كما نخشى الطاعون ، اولئك الابتدائين الذين لا سعة في عقولهم ولا بعد في نظرهم ، وان نخشى ايضاً التثقيب التجاري المحض او النفسي المحض . وعلى عكس ما تقدم ، يلزمنا لزوماً جيواً ، ان نهتم بدرس الافكار العامة والتضلع منها ، وان نهتم ، فوق اهتمامنا بالتعليم الفني ، بان نفهم ونقر ضرورة التعليم المدرسي الصحيح الذي يستند الى طريقة من التهذيب عميقة ثابتة ، فيسير القلب والعقل الى نضوجها التام . »

وان من الطرافة بمكان ان نرى هذا الصيرفي ، هذا الرجل العملي ، ينادي بتفوق الثقافة المدرسية على التعليم الفني . ويُبند بانه يوم تتفوق المصالح

الاقتصادية ، في هذه البلاد ، على المصالح الروحية والخلقية ، يومذاك ، نصبح
مجموعة من رجال قد يكونون اذكياء ، حذاقاً ، اصحاب اقدام ، اغنياء ،
ولكن مستبدين ؛ نصبح خليطاً من ذوي الانانية ، والاحتيال ، والحقد ،
والتخاذل . يومذاك نقفد لبناننا ، اي مدينة ذات الف سنة ، وسيطةً ضرورية
بين الشرق والغرب ، حافظةً تراث ائبنة ورومة على رغم انفصام دام عشرة
قرون ؛ نقفد تلك الصلة بين القطرين اللذين يقتربان احدهما من الآخر يوماً
فيوماً بفضل العلم وحذق رجاله ؛ نقفد تقاليدنا الثابتة المتقاربة على اختلاف
انواعها ، فنصبح وقد اخفنا معنى الأمة .» (ص ١١)

وفي سبيل ابعاد هذا الخطر ، وتحويل هذه المصائب ، يتكل الخطيب
على عمل النخب وتأثيرها في الشعب . واولاً يلزمنا نخبة من ارباب التفكير « نخبة
تفتش عن الجمال والصلاح ، للجمال والصلاح ليس غير ؛ وكما انه يلزمنا سراة من
ارباب الارض يستحقون هذا اللقب الشريف فيمدون الى سكة الفلاحة والى
الحقل مررتبها المهضومة ، ويميدون الى الفلاح شرفه المنتصب فيقرؤنه حولهم
في الارض ، يلزمنا سراة من ارباب الفكر الواسع ، والذكا . الحاذ ، والقلب
الكبير .»

* * *

هذا وان ما نبسطه باختصار لا يبدي الا مظهرًا ضئيلاً من تلك
الاعتبارات القيمة التي توسع فيها السيد شيحا . فنحثُ قراءنا على الاهتمام بالمحاضرة
نفسها والتأمل بأفكارها ، وهم اذا فماوا ، لا يضيعون وقتهم سدى !

